المترادف

هل نجد في اللغة ألفاظاً تترادف في معانيها ترادفاً متكاملاً ، هذا سؤال خطر بالبال وأنا أطالع كتابين متناقضين ؛ الألفاظ الكتابية للهمذاني ، وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي .

يقول الهمذاني في مقدمة كتابه : فليست لفظة منها ، أي من الألفاظ التي جمعها ، الاّ وهي تنوب عن أختها في موضعها من المكاتبة او تقوم مقامها في المحاورة ، اما بمشاكلةٍ او بمجانسةٍ او بمجاورة .

قبل أن أسأل هذا السؤال : هل تنوب في اللغة لفظة عن لفظةٍ منابأً كاملاً ، أحب ان اشير الى بعض ألفاظٍ ذكرها الهمذاني في كتابه ، فقد وقعت عيني في هذا الكتاب على باب ترادف السلب ، أشار الهمذاني الى انه يقال : اغتصب فلان مال فلان وسلبه .

فلننظر في معاني هاتين المادتين ، ذكر الفيروزابادي مادة غصب فقال : غصبه أخذه ظلماً كاغتصبه ، وغصب فلاناً على الشيء قهره .

وذكر مادة سلب فقال : سلبه اختلسه كاستلبه .

فالقارئ يرى ان الاغتصاب يستلزم الظلم والقهر ، أما السلب فليس يستوجب شيئاً من هذين الأمرين ، وانما يحتاج الى الخفة والسرعة فان من جملة معاني السلب السير الخفيف السريع !

يستنتج من هذا أن سلبه لا تنوب عن غصبه نوباً متكاملاً اذا توخينا دقة التعبير .

ومثل هذا الباب في الألفاظ الكتابية باب اللوم مثلاً ، فقد ذكر الهمذاني انه يقال : لمت الرجل لوماً وفندته تفنيداً .

فالفند بالتحريك الخرَف وإنكار العقل لهرم او مرض والخطأ في القول والرأي والكذب وفنّده تفنيداً كذّبه وعجّزه وخطّأ رأيه ، فانظر الى اتساع معاني هذه المادة .

أما اللوم فليس فيه شيء من كل ما ذكر فقد تلوم الانسان وليس من الضروري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن يكون خرفًا او ان تنكر عقله لهرمٍ او مرضٍ أو غير ذلك ، فهل تقوم لفظة لمت الرجل مقام فنّدته اذا كنا نُعنى بأسرار التعبير .

ونقيض كتاب الهمذاني كتاب : فقه اللغة ، للثعالبي ، فقد جعل لكل لفظة أسرارها وروحها بحيث لا نكاد نجد في ألفاظٍ متقاربة المعاني لفظة تنوب عن أختها او تقوم مقامها .

انظر مثلاً في تفصيل أوصاف السيد ، قال الثعالبي : الخلاحل السيد الشجاع ، والهمام السيد البعيد الهمة والقمقام السيد الجواد والصنديد السيد الشريف ، الى آخر هذه الاوصاف .

فأنت ترى ان لكل لفظة من هذه الالفاظ أسرارها وروحها ، فالشجاعة غير بعد الهمة ، وبعد الهمة غير الجود والجود غير الشرف ، فقد يكون السيد شجاعًا ولا يكون بعيد الهمة ، ويكون بعيد الهمة ولا يكون جواداً ، ويكون جواد ولا يكون شريفًا .

فهل تشتمل اللغة على ألفاظٍ مترادفةٍ تكامل ترادفها ، هذا ما أحببت الوصول الى السوآل عنه .

* * *

أنشأ « فنلون » في القرن السابع عشر كتابه الى « الاكادمية » الفرنسية ، بحث في هذا الكتاب عن أمور شتى ، فقد بحث عن المعجم وقواعد النحو واللغة والبديع والشعر والأنواع الأدبية والتأريخ وأشباه هذا كله .

من جملة كلامه في فصل اللغة قوله : إذا فحصنا عن كثبٍ عن معاني الألفاظ فقد يتبين لنا أنا لا نكاد نجد بين هذه الألفاظ لفظتين مترادفتين على وجه متكامل .

وقد قرأت تعليقًا على هذه العبارة لناشر كتاب « فنلون » وهو مفتش عام في وزارة المعارف ، جاء فيه اننا اذا لم نجد لفظتين مترادفتين فهذا سببه انه لا يمكن وجود هاتين اللفظتين ، ففي أية لغةٍ من اللغات لا نستطيع ان نشير في مختلف ألفاظ هذه اللغة الا الى صلاتٍ في الترادف متقاربة لا متكاملة ، لأننا اذا ذهبنا الى أصل هذه الألفاظ او اذا نظرنا في اختلاف الأشياء الدالة عليها فقد يسهل علينا ان نجد فرقًا بين لفظتين نزعم انهما مترادفتان ، ثم أتى هذا الكاتب على ذكر طائفةٍ من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الألفاظ الفرنسية لا نجد لها نظائر في لغتنا العربية ، من حيث وجه الشبه ، لأن في اللغة الفرنسية ألفاظاً من أصل لاتيني وألفاظاً من أصل يوناني ، فاذا ذكرت لفظتان مترادفتان من هذين الأصلين المختلفين فقد يهون على الباحث ردهما الى أصلها أما نحن معاشر العرب فلم نعرف حتى اليوم أصل لغتنا العربية ، على أن أهل اللغة بحثوا عن المترادف وستأتي الاشارة الى هذا البحث .

وقال الاستاذ « دارمستتر » في كتابه الجليل : حياة الالفاظ في فصل المترادف : لا نجد في لغةٍ خُلقت في أحسن تقويم مترادفات على وجه متكامل ، على أنا نجد في لغتنا الفرنسية ألفاظاً كثيرة مختلفة للدلالة على شيء واحد ، فلبعض النبات مثلاً أو لآلةٍ من الآلات ، او لمحصول صناعي ، خمسة أو ستة او ثمانية أسماء ، ولكن هذه الاسماء اذا كانت مستعملةً فان استعمالها لا يقع الا في اماكن متفرقة ، او في صناعات متباينةٍ ، اذ ان كل طائفة من الرجال ليس لها الا لفظة واحدة للدلالة على الشيء الواحد ، على ان هذه الأسماء المختلفة تدل على صفات مختلفة سميت الاشياء بها في أصل تسميتها ، وفعلاً لا يمكن ان يكون في اللغة العامة مترادفات متكاملة ، الا اذا كان أحد اللفظين المترادفين أقل استعمالاً من الآخر ، واذا كان اللفظان مستعملين فان ترادفهما لا يطول زمنه لأن فكر الانسان لا يريد أن يزعجه بحمل لا فائدة فيه ، فهذا الفكر اما ان يطرح في النهاية احد اللفظين واما ان يستعمله .

* * *

لقد بحث علماء لغتنا في المترادف المبحث نفسه ؛ ولم يكن تفننهم فيه أقل من تفنن علماء لغة الغرب ، فقد ذهبوا في المترادف مذاهب شتى أشار اليها السيوطي في المزهر ، فمنهم من قال ومن الناس من أنكر المترادف وزعم ان كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات ، فقد يسمى الشيء الواحد بالاسماء المختلفة نحو السيف والمهند والحسام ولكن الاسم واحد وهو السيف وما بعده من الالقاب صفات ، فكل صفةٍ منها فمعناها غير معنى الاخرى .

وخالف في ذلك قوم فزعموا ان هذه الاسماء وان اختلفت ألفاظها فانها ترجع الى معنى واحد وذلك قولنا : سيف وعضب وحسام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال آخرون : ليس منها اسم ولا صفة الا ومعناه غير معنى الآخر ، وكذلك الأفعال ، ففي قعد معنى ليس في جلس ، وكذلك القول فيما سواه مثل مضى وذهب وانطلق ورقد ونام وهجع وغير ذلك .

فأنت ترى ان فريقاً من علماء لغتنا أنكروا المترادف كما أنكره فريق من علماء الغرب ، وكيف يكون السيف والصمصام مترادفين تكامل ترادفهما ، فمن أين جاءت هذه المادة : الصمصام ، يقال : صمم السيف كصمصم اصاب المفصل وقطعه او طبَّق ، ومنهم من قالوا : ان التصميم هو المضي في العظم وقطعه ، والتطبيق هو اصابة المفصل وقطعه ، ومنه : والصمصام السيف لا ينثني ، فلفظة الصمصام لا تقوم مقام السيف ، فان لها صفة خاصة : السيف الذي لا ينثني ، واذا زعمنا ان هاتين اللفظتين مترادفتان ، فهل تنوب الواحدة عن أختها ، من كلام الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها ، فكيف يكون وقع كلامه لو قال : كان عبد الملك بن مروان صمصام قريش ، أفلا نجد ان لفظة السيف اذا استعملت في موضعها فلا تقوم مقامها لفظة أخرى من أخواتها القريبة منها مثل الصمصام .

وكذلك القول في كثير من الألفاظ التي زعموا انها مترادفة .

ففي كل اللغات الفاظ لم يتكامل ترادفها ، فان بعضها ينفصل عن بعض بشيء من الاختلافات والبراعة كل البراعة في تمييز هذه الألفاظ وفي استعمالها في المواضع المناسبة وهذا ما نسميه : فقه اللغة ، وكلما ملكت اللغة ألفاظاً كثيرة للافصاح عن اختلافات الفكرة الواحدة او العاطفة الواحدة كلما ازداد غناها ، فاذا عرضت لنا مثلاً فكرة السيادة ، وكان لهذه الفكرة الواحدة أوصاف مختلفة كالشجاعة وبعد الهمة والجود والشرف استطاعت لغتنا ان تفصح عن كل صفة من صفات هذه السيادة وهذا من كمال حسن اللغة ، اما الترادف المتكامل فلا أثر له في اللغة ، فلكل لفظة سرها وروحها .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net